تعالوا نملك قطعة من أرض مصر !

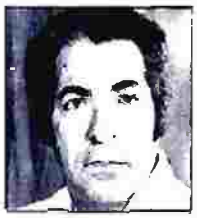

أنيس منصور

أكثر أرضنا : صحراء .
وأكثر شعبنا : أميون .

ولابد أن نصلح الأرض البور والعقول البور . لنعلم الأرض كيف تنطق بالتدريج . وكيف تزهى بالزهر ، وكيف تفوح بالعطر . وكيف نكون لها ظلال تحتها أغنام وأبقار . ونعلم الهواء كيف يصبح فراشات . ونعلم الفراشات كيف تنتقل من شجرة إلى شجرة . ونعلم الأشجار كيف تحتضن النحل وكيف يكون للنحل عسل .. أى كيف تكون الصحراء جنة على الأرض ..

ثم كيف يتحول المواطنون من كائنات تروح وتجىء .. تأكل وتشرب وتتناسل ، إلى آدميين .. أفكارهم زهور وطيور .. لها ماض ولها مستقبل .. وتصبح أيديهم العاملة عاقلة أيضا ..

والأميون أيديهم جاهلة .. ومهما كانت أيديهم قادرة على الإنتاج فهى عاطلة أيضا ..

ولايمكن أن نزرع الصحراء البور بعقول بور لأن فاقد العلم لا يعطيه ، وفاقد الحياة لا يمنحها .. فالذين يعلمون الصحراء ، يجب أن يكونوا هم أيضا متعلمين ..

وذلك عبء عظيم لا يستطيع أن ينجزه جيل واحد .. وإنما أجيال .. ولهذا كانت الصحراء أمل الأجيال كلها ..

ولسنا وحدنا الذين نزحف على الصحراء ، وإنما شعوب أخرى كثيرة .. لأن أكثر الكرة الأرضية صحراء : رملية أو جلبدية .

ثم إن مياه المحيطات مساحات هائلة معطلة .. فنحن لم نستغل المحيطات بعد .. فى المحيطات حياة وعناصر الحياة . وكما يمكننا زراعة الصحراء ، يمكننا أيضا زراعة المحيطات .. ويوم تضيق الأرض بنا ، أو نضيق بها فسوف نذهب إلى الكواكب الأخرى بحثا عن طعام لجياع الأرض ودواء لمرضاها ..

ولن يتحقق ذلك إلا فى ألوف أو ملايين السنين ..

ولا أدعى أننى من الذين يولعون بأن تكون لهم أرض . فأنا ريفى ولكنى لست فلاحا .. فقد ولدت فى الريف ، ولم أعش به ، وعندما عشت فى الريف كنت أجرى وراء أبى ، أو أرتمى على صدره من مكان إلى مكان .. من أرض لا نملكها ، إلى أرض أخرى لا نملكها ، أكبر وأوسع ..

فقد كان أبى مأمورا لتفاتيش عدلى باشا يكن وعز الدين يكن وغيرهما من أمراء زمان .. ولم تكن الأرض التى نعيش فيها إلا مثل منصات القفز .. نقف عليها لكى نقفز منها .. أو كانت مثل منصات إطلاق سفن الفضاء .. محطات ننتقل منها إلى أماكن أخرى .. وليس وراءنا إلا التيم على ما فات ، والخوف مما هو آت .. فلم تكن الأرض المزروعة إلا غابات موحشة .. أو غابات مليئة بالوحوش .. فلم تقع عينى على أرض ، وإنما وقعت أنا على كل أرض .. وفى كل مرة أرتفع عن الأرض ألعنها ـ هى ومن عليها وما عليها ..

ولذلك لم أحب الأرض ولم أفكر فى أن أملك أرضا . وقد عوضنى الله عن ذلك بأن أملك الكتب . أى بأن أملك بيوتا من ورق . أحتمى بها من العواصف .. وكانت العواصف كلها تهب من أرض مزروعة واسعة شاسعة . ولكنها رغم ذلك تضيق بنا .. فى كل مرة أراها أغمض عينى عنها ، لأن خضرتها قاسية ، واتساعها ضيق ، وثرواتها حرمان ، وخيراتها ألم !

ومنذ عشرين عاما ذهبت مع عدد من الأصدقاء الفنانين إلى ضاحية « عزبة النخل » لنشترى أرضا ـ أسف ـ ليشتروا أرضا . فقد رافقتهم فقط وكان المتر بثلاثة قروش .. واشترى كل واحد فدانا . ولم أشتر شيئا ولم أجد معنى لذلك ورفضت الفكرة . ولم أعرها أى اهتمام .. فالثأر بينى وبين الأرض قديم .. وإحساسى كان دائما أننى مثل شجرة كلما وضعوها فى الأرض عادوا فاقتلعوها . فأنا أنظر إلى الأرض كأنها تخشيبة فى قسم بوليس أو محكمة .. أو كأنها « منطقة عزل صحى » .. ومعنى العزل الصحى .. أنه يجب عزل أى إنسان لا عتبارات صحية .. أى خوفا عليه من المرض . وكان إحساسى دائما ، أننى مصدر المرض والدليل على ذلك ، أننا كنا نمشى ونترك الأرض وما عليها ومن عليها وراءنا ، آمنة مطمئنة !

واكتفيت بأن كتبت مقالا أسخر من مجرد أن يكون للإنسان أرض يبنى عليها بيتا . أو يضع فوقها جاموسة .. أو يعلق عليها لافتة ويقول : هذه أرضى أنا .. وتلك أرضك أنت .. وهذه أرضهم هم !

مع أن « الامتلاك » غريزة عند الإنسان والحيوان .. وعلى الرغم من ذلك فليس كل الناس يملكون أرضا . فهناك من يملك البيت ومن يملك السيارة .. ومن يملك حريته ..

ومن مظاهر الحرية أن يقول الإنسان : إن الذى أملكه يملكنى أيضا . وبقدر ما يملك الإنسان من الأشياء بقدر ما يكون أقل حرية !

فالذى عنده بيت خائف من السكان ، والذى عنده أرض خائف من المستأجرين .. والذى عنده زرع خائف من الآفات ..

والذى لا يملك لا يخاف من شىء أو من أحد ..

والذين لا يملكون يقولون أيضا : إن التحاذين هم أكثر الناس حرية .. فلا أحد يعيب عليهم سلوكهم . ولا أحد يعيب عليهم فكرهم ..

والناس يقولون : عن الشحاذين يكفى أنهم شحاذون .. فى أى لا لهم عليهم أن يفعلوا أى شىء .. بلا تواضعهم .. أى أننا لا نطبق عليهم قيود الذين يملكون ..

وهذا يمكن أن يقال . ويقال . ولكنه « تحرير » فقط . فقد تعلمت كثيرا على أننى لا أجد مواطنى، قدم فى أى مكان أستطيع أن أقول إن هذا ملكى . وعند هذه الأرض وهولها حدود حريتى . وحدود حريات الآخرين .

ولذلك كانت الأرض والعرض بمعنى واحد .. فالذى يعتدى على أرضى التى أملكها ، كالذى يعتدى على ثوبى ، على جسمى ، على عقلى .. على زوجتى على ولدى .. على كرامتى وشرفى !

والفلاحون أكثر الناس ارتباطا بالأرض وقديما عبدوا الأرض ، كما عبدوا السحاب والأنهار والشمس أى أن الإنسان قد عبد كل مصادر الحياة !

والوطن كله أرض لكل الناس . ولذلك فالوطنية هى حب أرض الوطن . والدفاع عنه والموت فى سبيله . والذين يحبون بلادهم ليسوا فقط الذين يملكونها . بل إن أكثر الذين يدافعون عن بلادهم لا يملكونها .. فهم أنبل وأشرف وأعظم . لأنهم يدافعون عن الأرض التى لا يملكونها .. وإنما هم يدافعون عن التاريخ .. عن الشرف .. عن الكرامة .. عن الحرية .. عن السيادة .. ضد الظلم والارهاب والقهر والاغتصاب ..

لإذا كان الانسان وطنيا ، ثم هو فى نفس الوقت يملك قطعة من أرضه .. أو جانبا من تاريخها ، فهو أكثر الناس ارتباطا بالوطن . لأنه يملك قطعة من الوطن ولأنه هو أيضا قطعة من الوطن !

والنداء إلى تحرير الصحراء من البور ، أو تعمير الصحراء بالاخضرار ، هو دعوة أيضا لتوطين المواطنين .. أى جعلهم أكثر وطنية . وأشد تفانيا فى حب مصر والدفاع عنها ، والموت من أجلها ..

والفيلسوف العربى ابن خلدون هو أول من التفت إلى الفرق بين سكان الصحارى وسكان المدن ، أو أخلاقيات البدو وأخلاقيات الحضر - أى أبناء المدن .. أو الفرق بين البدوى والفلاح والمدنى - أى ساكن المدينة . وابن خلدون يقول إن بناء المدن مرحلة متحضرة على إقامة الخيام . ولذلك فالذين يبنون المدن ويعمرون الأرض أكثر علما من أبناء البادية الذين يقيمون الخيام على الرمل فى مهب الرياح . ويتنظرون وراء المطر أو ينتظرون المطر حتى إذا سقط اخضرت الأرض ، فإذا اخضرت أقاموا حتى تأكل حيواناتهم ..

والفلاحون إذا أقاموا بيوتا ، فهى بيوت أقرب إلى شكل الخيام : هزيلة متهدمة ليس لها أساس علمى .

ولذلك فالدولة هى التى يجب أن تقيم المدن . وهى التى يجب أن تزرع الأرض . لأن الدولة أقدر مالا وأكثر علما .. أو هى التى تقدم المال والخطة لمن يريد أن يبنى بيتا .

وابن خلدون هو أول من قال : إن الدولة إذا أرادت أن تغير أخلاقيات الناس ومعنوياتهم أسكنتهم الأرض المزروعة . وأقامت لهم بيوتا .

إن الدولة بذلك تستجيب إلى طبائع الناس . وتجعلهم جنودا على أرضهم .

أى أن الدولة تستحث غريزة الامتلاك عند الناس .. فكل إنسان يريد أن يملك . وأن يستقر . وأن يأمن . وأن تكون له جذور كالشجرة . أو تكون له قواعد كالبيت . وفى ذلك تعميق وتأصيل لمعانى الوطن والوطنية والكرامة والشرف والمحبة بين الناس .. وإنما الكراهية تكون عندما يملك أقل الناس . ولا يملك أكثر الناس ..

والكراهية هى أم الحقد . والحقد أبو الصدام . الذى هو أبو الحرب بين الطبقات ..

حتى الدول الشيوعية التى رأت أن الامتلاك شىء . وحررت الناس جميعا من أن يكون لهم شىء يملكونه ، عادت فأعطت لكل واحد بيتا وسيارة .. وأعطت لكل واحد مساحة من الأرض يزرعها .. أى أن هذه الدولة التى نظرت للإنسان على أنه حيوان يرعى فى الأرض ، عادت فصححت هذا الوضع اللا إنسانى .. وردت له بعض إنسانيته أو جانبا من غريزته ..

ولن نستطيع أن نزرع كل الصحارى فى وقت قصير - لا نحن ولا غيرنا من الذين يعيشون على هوامش الصحارى الرملية أو الجليدية . وإنما ذلك يحتاج إلى وقت طويل أى إلى أجيال كثيرة قادمة . ولكن من المؤكد أن هذا سوف يحدث ..

ولن نقوم بتعمير الأرض فى مصر مثلا بنفس السرعة التى يتزايد بها عدد السكان نسوف نكون أكثر عددا ، ونكون أرضنا أضيق مساحة . وليس من الحكمة أن نقف فى الطابور واحدا وراء واحد حتى يجىء دورنا فى احتلال الأرض الصفراء وتعميرها أو تعليمها كيف تكون خضراء ..

ولو وقف الشباب منتظرا دوره فإن هذا لن يجىء ، ولذلك يجب أن يفعل الشباب أى الأجيال القادمة شيئا إيجابيا .

وليس أمامهم إلا العمل فى مصر أو فى غيرها والأرض العربية والأجنبية واسعة . والانسان يجب أن يعمل فى أى أرض . وأن يكون نافعا فى أى موقع .. والطبيعى جدا . بالنسبة للمصريين أن يهاجروا أو يغتربوا : يجمعون المال ليشتروا أرضهم - قطعة من أرضهم بعد ذلك .. أى ليشتروا صحاريهم .. فكأنهم ذهبوا أبعد ليعودوا أقرب إلى الأرض ..

وإذا كان النيل قد وهبنا مصر ، فإنه قد أعطانا المثل لكى نعمر الصحراء .. وذلك بأن نشق فيها الأنهار والطرقات وأن نعمر البيوت وأن نتجاور ونتقارب ونتكاتف دفاعا عنا .. أى دفاعا عن مصر اليوم وغدا ..

فيا أيها المصريون تعلموا وعلموا أرضكم الصفراء أن تكون خضراء .. وحتى تزداد أرضنا اخضرارا وإزهارا وطيورا ، يجب أن نعلم الفلاحين الأميين ..

وإلا كان الفلاح الجاهل مثل رمال الصحراء تسقط على الأرض المزروعة فتجعلها أقل خصوبة وأقل ثمارا .. وبذلك يكون الفلاح الجاهل آفة زراعية ..

فلنعمل على زرع الأرض البور وتعميرها ، وتنوير العقول البور وتثقيفها ، لأنه إذا كانت الصحراء خرابا ، فإن الجهل تخريب !

ونحن لا نغزو الصحراء لتهزمنا ، وإنما لننتصر عليها .. وننتصر أيضا على أنفسنا : أى على الصحارى التى فوق أكتافنا نحن الأغلبية الساحقة من المصريين !

أنيس منصور